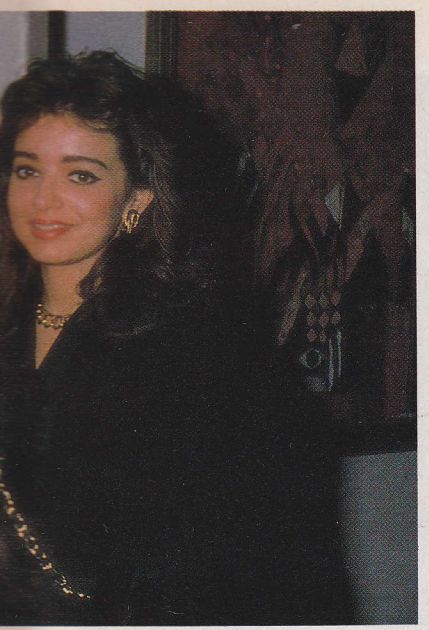

ربع قرن على هذه الطريق

العزّاوي ريشة ولون

ضياء العزاوي، هو احد ابرز الفنانين التشكيليين العرب في اوروبا، شارك اخيرا في معرضين اقيما في الوقت نفسه في عاصمتين اوروبيتين: الاول في كاليري «الكوفة» في لندن، والثاني في «معهد العالم العربي» في باريس. ومن خلال المعرضين، سجّل العزاوي اضافة تطويرية الى تجاربه الفنية التي بدأ رحلتها منذ ربع قرن، بخصوصية وتميّز في الرؤيا والتعبير.

معرض لندن، شارك فيه العزاوي الى جانب زميلين له من بلده العراق، هما رافع نصيري المقيم في بغداد وصالح جميعه المقيم في الولايات المتحدة الاميركية. ولم يتمكن كلاهما من الحضور لكنّ لوحاتهما نابت عنهما. وحضر العزاوي وحده بحكم اقامته في لندن منذ اثني عشر عاما، لكنه غاب هو الآخر عن معرض معهد العالم العربي في باريس، كما غاب الفنانون الثلاثة الآخرون وهم رفيق الكامل من تونس، محمد القاسمي من المغرب، مروان قصاب باشي من سوريا ومقيم في برلين. ومع ان معرض باريس هو الاول الذي يقيمه معهد العالم العربي بعد انشائه، فالمقصود منه هو القاء الضوء على الفن التشكيلي العربي ولو في غياب الفنانين، وابراز تكامل العلاقة بين الفنانين العرب داخل الوطن العربي وخارجه، واعتبار الفنانين المهاجرين جزءا من الثقافة العربية.

العزاوي عرض في لندن تسع لوحات جديدة، يتابع فيها تجسيد هموم وطنه وامته، وابرزها لوحة «السيّاب يبحث عن شناشيل ابنة الشلبي» المستوحاة من قصيدة للشاعر الراحل بدر شاكر السياب، وهي ترمز الى الدمار الذي حلّ في مدينة البصرة وارادة الصمود واعادة الاعمار. وتمثل اللوحة السياب خارجا من كفن ليبحث عن اشياء احبها في مدينته. وهناك لوحة «البيت المهجور» التي ترمز الى بيت في جنوب العراق هجره اصحابه من جراء تصاعد العمليات الحربية، لكنه بقي يحمل الكثير من المعاني الانسانية والوطنية. وهذه اللوحة صبّ فيها العزاوي تفاصيل لونية وايحائية جميلة.

تكمن قيمة اعمال ضياء العزاوي في طريقته التعبيرية الحيّة غير المباشرة عن الحدث، بعد ان تحوّلت الاحداث الداخلية الى نوع من الذاكرة اليومية التي تلحّ على الحياة اليومية للانسان العربي، كما يقول ضياء.

اما خصوصية اعماله، فتكمن في ينابيع ومصادر الوحي التي يستلهمها، وهي النصوص الشعرية والادبية قديمها وحديثها، والحكايات التاريخية القديمة او المعاصرة التي تكون مادتها مقبولة ومطروحة يوميا، او يمكن تصوير انعكاساتها على التاريخ المعاصر كملحمة جلغامش وسواها.

وبالرغم من انقضاء ربع قرن على رحلته مع الريشة والالوان والرؤى، يرى ضياء العزاوي ان اعماله لا تزال تجريبية، ويعتبرها عبارة عن سلسلة من التجارب، لكنه لا يتوقف عند تجربة معينة، لانّ مثل هذا التوقف يعني، في نظره، موتا بطيئا للفنان. وهو يؤمن بتطوير التجربة، ويستفيد في كل تجربة جديدة من التجارب التي سبقتها، منطلقا من مفهوم اساسي هو الانتماء الثقافي للحضارة العربية، وتحقيق هوية وطنية تساعد في تطوير الثقافة العربية على اي صعيد.

وقيمة الفنان، في رأي ضياء، هي في تطوير تجربته، مع المحافظة على التوجه الفكري والفني نفسه. ومن هذا المفهوم، يحرص ضياء على الاستفادة من التراث القومي والاسلامي لتقديم لوحة تتسم بمميزات وملامح لها علاقة بالثقافة العربية. وهو لذلك يدعم التجربة التي تدعو الى ايجاد لوحة ذات خصوصية وانتماء للحياة اليومية العربية. ومن هنا فهو على خلاف مع الفنانين الذين يقولون بان الرسم تجربة عالمية لا تحتاج الى محاولة انتماء تاريخي او جغرافي لوضع معين او واقع محدد. فالجانب النفسي، كما يرى ضياء، له تأثيره الخاص في عمل الفنان، لجهة استخدام اللون والاسلوب التعبيري عن الحالات الانتمائية. وفي هذا الاطار، يعبّر كثيرون من الفنانين العرب اليوم عن الامل والتفاؤل بالمستقبل، بالرغم من كل المآسي التي يشهدها الوطن العربي.

وكفنان مهاجر، يؤمن العزاوي بانّ الوطن هو المحطة الاساسية في رحلات الفنان واعماله. وربّ فنانين عرب يعيشون في وطنهم ويتأثرون بالغرب اكثر من الغربيين، على طريقة «ملكي اكثر من الملك»، وهذا يعود الى التوجه الخاص للفنان. ومع ذلك فان الفنان العربي، سواء كان مقيما او مهاجرا، يستخدم الثقافة الغربية كوسيلة لتطوير او اثراء تجربته. لكن المهاجر، يقول ضياء، اكثر انتماء لوطنه وامته من المقيم، لانه يتعرض لتأثيرات مباشرة سريعة ويحس بعدم الانتماء للبلد الذي يقيم فيه اقامة مؤقتة معرضة للتغيير.

ومن التجارب الاخيرة التي مارسها ضياء العزاوي، المزج بين النحت والرسم، بحيث تكون اللوحات اقرب الى المزخرفات التي يكمل فيها الخطاط عمل الرسام، من خلال استخدام حروف واشكال عربية دون دلالات، كتلك التي تزين الابواب الشعبية في بعض المناطق السعودية واليمنية، او التي تُزين بها ابواب المساجد في أي مكان من العالم الاسلامي.

وهذا العمل يرتبط بتقليد هو انّ الحجاج، بعد ادائهم فريضة الحج، يعودون الى وطنهم ومنزلهم ليجدوا بان اهلهم رسموا على مدخل البيت حروفا واشكالا عربية واسلامية، للدلالة على ان صاحب البيت اصبح حاجا عائدا من الديار المقدسة. ومثل هذا التراث شائع في الحضارة البابلية في العراق، كما هو شائع منذ قرون عديدة، عندما كان الرسامون يزينون الكتب العلمية بأشكال ورسوم مختلفة. وهذه التجربة سجلها العزاوي في معرض الفنانين العرب الذي اقامه مكتب جامعة الدول العربية في لندن خلال تشرين الاول/اكتوبر عام ١٩٨٦.

ويرتاح ضياء العزاوي الى الجمهور العربي في لندن الذي اصبح له حضوره، بعد ان تكونت جاليات عربية كبيرة لها مصالحها الاقتصادية، وبالتالي تحتاج الى مظاهر ثقافية متنوعة. وهكذا اصبح للشعر والفن التشكيلي جمهورهما في لندن، مع فارق ان الشعر مادة يومية للانسان العربي والرسم اكثر ترفا. ومع ذلك يجد الفنان العربي الذي يعرض في العاصمة البريطانية من يشتري لوحاته، ولو كان ثمنها عدة آلاف من الجنيهات

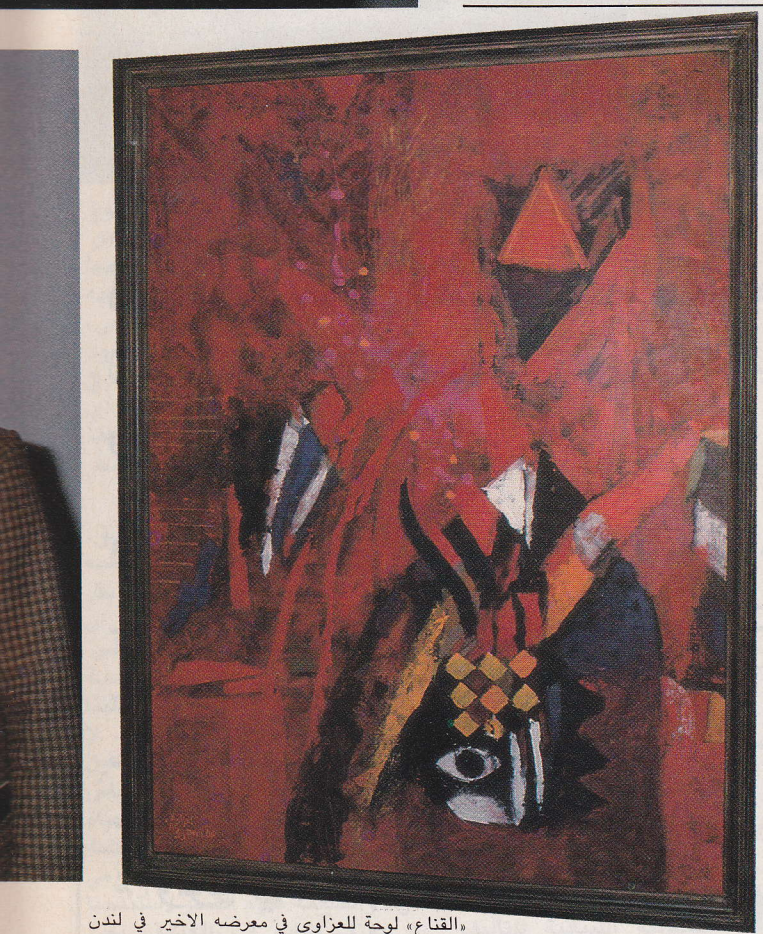

«القناع» لوحة للعزاوي في معرضه الاخير في لندن

حضور ناعم في معرض ضياء العزاوي

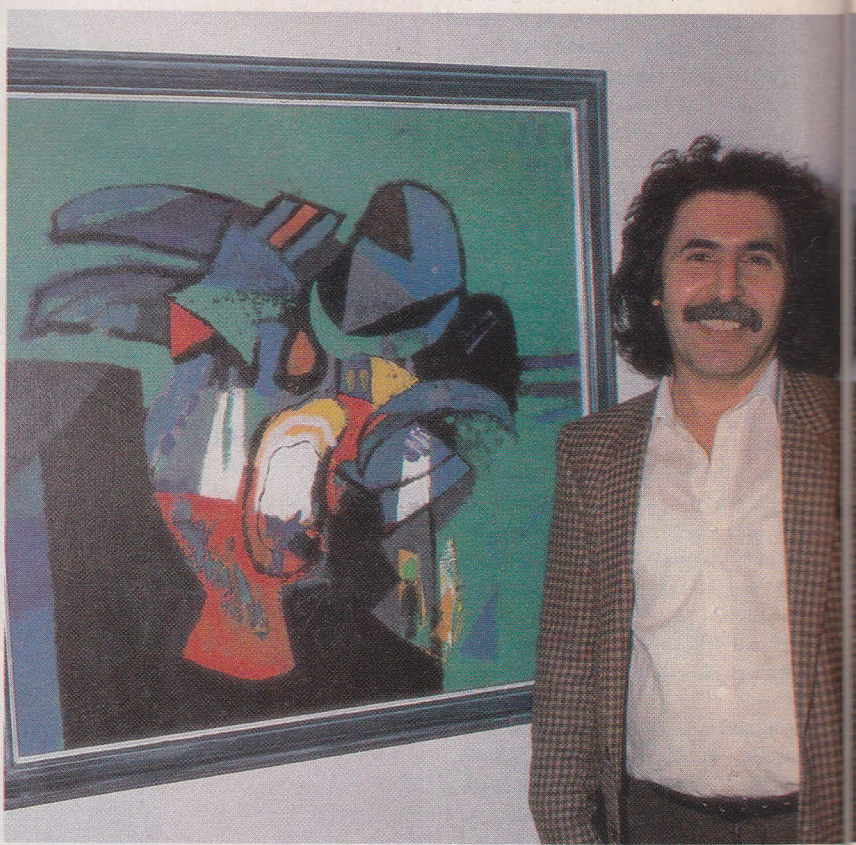

ضياء العزاوي الى جانب احدى لوحاته في معرض لندن «عدسة: شربل قرداحي»

الاسترلينية. ويتوقع العزاوي ان تسرق باريس اضواء الفعاليات الثقافية العربية من لندن بعد انشاء معهد العالم العربي في العاصمة الفرنسية.

والمهم، في نظر ضياء العزاوي، ان ينجح الفنانون العرب الذين يعرضون في اوروبا، في عملية المواجهة الحضارية

او التحدي الحضاري، بالمقارنة مع اعمال الفنانين الغربيين. والمهم كذلك، ان يعكس اي معرض فني عربي خارج الوطن العربي، الثقافة اليومية والانتماء للحضارة العربية، وان تقفز اية فعالية ثقافية عربية في اوروبا فوق الجانب الاعلامي المرتبط بجوانب سياسية مؤقتة، لان الجمهور الغربي عندما يأتي لمشاهدة معرض لفنانين عرب، لا يسأل عن انتماء الفنان الى اي بلد من البلاد العربية الا بعد ان تشده اللوحة او تستهويه المنحوتة، لان العمل بحد ذاته هو الذي يفرض نفسه ويمهد للسؤال عن اسم صاحبه.

ويدعو ضياء العزاوي زملاءه الفنانين العرب، ان يكونوا جزءا فعالا في بناء الثقافة العربية المعاصرة. وهو شخصيا، يلتزم عمليا بهذه الدعوة التزاما مطلقا، من خلال شاعرية ريشته المرهفة، ورؤاه الفكرية الغنية، وثقافته الذوقية المترفة، وسلسلة تجاربه العميقة النابضة بالحس القومي الاصيل وعراقة الانتماء للتراث العربي والاسلامي. ■

حافظ محفوظ

اللوحة الفائزة معروضة خلال المزاد

تسعة ملايين دولار ثمنا للوحة

موديغلياني يحطم الارقام القياسية

«لوحة ماريو» لموديغلياني حطّمت الارقام السابقة

بعد اكثر من سبعة وستين عاما على غيابه حطّم الفنان التشكيلي الايطالي آماديو موديغلياني كل ارقامه القياسية السابقة بالنسبة الى سعر اللوحة التي تحمل توقيعه. فصالة «كريستيس» لبيع اللوحات بالمزاد العلني، وهي من اشهر الصالات العالمية في هذا المجال، كانت قبل اسابيع مسرحا لعملية مزاد علني حلت فيها «لوحة ماريو» التي تحمل توقيع موديغلياني محل الصدارة. ذلك ان مبيعها رسا على احد المشاركين بقيمة ٤،٨٤٠ ملايين جنيه استرليني، اي ما يوازي تسعة ملايين دولار اميركي تقريبا. و «لوحة ماريو» هي واحدة من آخر اعمال موديغلياني الذي وضع لمساته الاخيرة عليها قبل اسابيع من غيابه في العام ١٩٢٠.

وهذا الرقم فاجأ الخبراء الفنيين الذين لم يكونوا يتوقعون ان تحصل اللوحة المذكورة على اكثر من خمسة ملايين دولار في اكثر تقديراتهم تفاؤلا. وذلك لعدة اعتبارات ابرزها ان «لوحة ماريو» تعتبر بسيطة نسبيا، من حيث التشكيل الفني من جهة، ومن حيث دلالتها على طريقة موديغلياني الفنية من جهة ثانية.

وتذكر الخبراء في الوقت نفسه ان شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام الماضي قد شهد رقما قياسيا جديدا بالنسبة الى اسعار اعمال الفنان الراحل، وذلك عندما بيعت لوحة لموديغلياني بعنوان «جالسة على الديوان» بمبلغ يزيد قليلا عن سبعة ملايين دولار، وذلك في مزاد كبير شهدته صالة «دروو» الفرنسية في باريس.

واللافت ان تحطيم الرقم القياسي الذي حدث في «كريستيس» اللندنية قد اذهل الخبراء ليس فقط لان لوحة موديغلياني تخطت توقعاتهم كثيرا، بل لانهم كذلك توقعوا ان تباع احدى لوحات ادغار ديغاس (١٨٣٤ - ١٩١٧)، الانطباعي الفرنسي، بمبلغ ضخم للغاية. غير ان نتيجة المزاد اظهرت ان لوحة ديغاس التي تحمل عنوان «عاملات المصبغة يحملن الثياب» لم تحصل الا على اقل من ٤ ملايين جنيه استرليني، اي اقل قليلا من سبعة ملايين ونصف المليون من الدولارات.

وهاتان المفاجأتان، الاولى صعودا بالنسبة الى موديغلياني، والثانية هبوطا بالنسبة الى ديغاس، جعلت احد النقاد التشكيليين يقول: نجاح اللوحة في المنظور الفني لا يعني ابدا نجاحها في المنظور التجاري. فعمل موديغلياني اقل تألقا، من حيث الفن، من عمل ديغاس. ولكنه تفوق عليه في الاسعار ذلك ان للذواقة الاثرياء اعتبارات خاصة لا يمكن التكهن بها! ■